الصهيونية الحديثة وتنازلاتها المؤلمة في لبنان والأردن وسيناء

عدت في الأسبوع الماضي إلى كتاب من أكذب الكتب الصهيونية وأخطرها، هو كتاب " مكان بين الأمم إسرائيل والعالم " لمؤلفه بنيامين نتنياهو رئيس وزراء إسرائيل الأسبق، والرجل الذي تضعه التوقعات منافسا لشارون في أية انتخابات إسرائيلية قادمة. وكان يخطر لي هذا الكتاب المسموم كثيرا بين الفينة والفينة طوال العام الماضي كلما شاهدت مدى ازدياد قوة الأحزاب والجماعات الأكثر جشعا وبغضا للعرب وهي التي تدعى اليمين الإسرائيلي وقد تضاعف مبلغ سيطرته في الساحة السياسية الإسرائيلية. كما كان الكتاب يخطر لي كلما تابعت التطابق الذي أصبح تطابقا حرفيا بين تصريحات رجال الحكم في إسرائيل وأمثالهم في الولايات المتحدة. فكتاب نتنياهو في مجمله يدور حول محورين أساسيين: محور إعادة تشكيل النظرية الصهيونية طبقا لأكثر الصيغ تطرفا وتشددا وتشنجا، ومحور غسل دماغ الرأي العام الأمريكي وفقا للنظرية الصهيونية وجميع رؤاها وجميع تحليلاتها.

وكنت قد نبهت إلى خطورة الكتاب أول مرة عندما كان نتنياهو رئيسا للوزراء عام ١٩٩٧، لا سيما حين قرأت فيه النص التالي: " إذا كانت كل أقلية تشكل خطرا فعليا على سلامة ووجود الدولة التي تعيش فيها، فلا بد أن تبحث الأغلبية في هذه الدول عن طرق لقمع وضغط هذه الأقليات، أو ربما لتصفيتها في النهاية مثلما يحدث في البوسنة والهرسك، حيث يمارس الصرب هناك حملة منهجية للتطهير العرقي ضد أقلية مسلمة تشكل أغلبية محلية. وإذا كان يحق لكل أقلية الانفصال عن الدولة التي تعيش فيها، فليس من الغريب أن يتوصل البعض إلى استنتاج أنه من الأفضل لهم طرد هذه الأقلية من داخل الحدود والتخلص من هذه المشكلة نهائيا ".

بين تشيني وزئيفي

أعتقد أن أمثال نتنياهو مستعدون للمضي قدما في هذا النوع من الكذب والخلط وهذا الطراز من الأفكار، بل إنهم جاهزون لاقتراف مذابح وجنايات كالتي يتحدث عنها جهرا، حتى بعد أن شاهدوا مجرم الحرب الأثيم ميلوزوفيتش وأركان حكمه في قفص المحاكمة، وحتى بعد أن تشكلت محكمة في بلجيكا لمحاكمة آريئيل شارون نفسه.

لكن مناسبة استحضار كتاب نتنياهو الآن هي الأقوال التي صدرت في الولايات المتحدة عن نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني ضد الرئيس ياسر عرفات مؤخرا، والتي أدهشت سامعها الشاهد عليها دافيد بن اليعازر وزير الحرب الإسرائيلي، فقال إن رأي تشيني في عرفات (والعرب عامة بالطبع!) أكثر تطرفا من رأي الوزير السابق المقتول رحبعام زئيفي.

وأقوال تشيني الأخيرة تشبه أقوالا سابقة أجاز فيها سياسة الاغتيال الإسرائيلية وبررها، وهذه الأقوال ليست على كل حال إلا حلقة واحدة في سلسلة متلاحقة من التصريحات والأقوال الأمريكية التي فاجأتنا بكثرتها من ناحية وبصيغها المتطرفة على نحو لم يسبق له مثيل من ناحية أخرى، مع أن التحامل على العرب والفلسطينيين لم يتوقف يوما. فيبدو لنا واضحا أن قاموس الولايات المتحدة الحالي مأخوذ مباشرة من عبارات نتنياهو وأن تقييم الولايات المتحدة وتحليلها الأحداث في منطقتنا منقول بحذافيره من كتاب نتنياهو. فهو يقول مثلا: " امتنع الحكام العرب عن استخدام العنف ببشاعة ضد الدول الغربية فقد أدركوا أن الغرب قوي.. لذا استنتجوا

بأن الإرهاب سيكون أداة أكثر ضمانا وفعالية لتحقيق أهدافهم لأنه وفر لهم إمكانية ضرب أهداف غربية، وفي نفس الوقت التنصل من كل مسؤولية ". ويقول أيضا: " يعتبر الإرهاب الدولي سلعة تصدير شرق أوسطية، والأساليب التي يتبعها في أنحاء العالم هي أساليب أنظمة الحكم والمنظمات العربية التي توجهها: اختطاف طائرات، تفجيرات.. وضع متفجرات في السفارات.. اغتيالات دبلوماسية واحتجاز رهائن.. كل هذه الأعمال كانت من اختراع الإرهاب العربي.. العنف ظاهرة دائمة في الحياة السياسية في كل الدول العربية". ثم انتقل المؤلف بخطوة أخرى ليجعل من بعض الأفعال العنيفة التي جمعها من العالم العربي الواسع، والتي جعلها بمثابة (طابع) للشخصية العربية دليلا، لاستنباط النظرية وتأصيل الفكرة لدى الدوائر الأمريكية والغربية عموما فقال إن جذور الإرهاب والعنف العربي ترجع إلى ثلاثة عناصر مركزية يتميز بها العالم العربي وهي:" أزمة الشرعية، والرغبة في الوحدة، والعداء للغرب.. والعناصر الثلاثة مرتبطة بتصاعد الإسلام المتطرف.".

لا وجود للفلسطينيين

لا يشير نتنياهو من قريب ولا بعيد إلى حقيقة الإرهاب الذي قامت به المنظمات الصهيونية ضد العرب بل وضد بريطانيا الحاضنة والحامية أيام الانتداب، ولا يشير إلى إرهاب الدولة الذي سلط الوحدات الخاصة ضد العرب والفلسطينيين عبر الحدود. ولا يشير إلى اغتيال يتسحاك رابين على يد اليمين الإسراءيلي، ولا إلى دلالة صعوده وصعود شارون وأمثاله إلى الحكم، بعد أن ظل حزب حيروت وزعيمه مناحم بيجن قوة هامشية لا تؤخذ على محمل الجد في الساحة السياسية الإسرائيلية. فهذه الانتقائية في جلب الوقائع، والدس اللئيم في الاستنباط تعمد أن يظهر اليهود بصورة السوبر أمة من ناحية وأراد أن يتوصل في نهاية التحليل إلى أن كراهية العرب للغرب ولإسرائيل تنبع من المصدر ذاته.

ولا عجب في أن يبلغ الاجتراء على الحقيقة مدى أبعد من هذا في كتاب الأكاذيب الوقحة، إذ يتحدث المؤلف مجادلا بأن وجود الفلسطينيين نفسه أكذوبة ويجرؤ على القول إن " الذين كانوا يلقبون أنفسهم بالفلسطينيين في عهد الانتداب البريطاني هم يهود فلسطين بالذات الذين أصدروا جريدة البالستين بوست وفرقة الموسيقى الفلهارمونية الفلسطينية."

أما العرب الفلسطينيون الذين هم أهل البلاد وأصحابها الذين ظلت تعيش إلى جانبهم أقلية يهودية لم تزد في أوائل القرن العشرين عن خمسة آلاف يهودي، فيقول عنهم نتنياهو إنهم لم يكونوا يرفعون شعارات قومية خاصة منفردة، وكانوا يؤكدون دائما على انتمائهم للأمة العربية. "وبذلك يتخلص من جسم الحقيقة كله بضربة واحدة من قلمه. بل إنه يقول في موضع آخر عن الفلسطينيين: " العرب أوجدوا هوية فلسطينية جديدة، وخلقوا بالأكاذيب شعبا جديدا مختلفا هو (الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة). "

إن النظرية الصهيونية المتجددة بقلم نتنياهو تقوم على تجاهل الحقائق الكبرى تجاهلا كاملا، وتتاجر بأكبر أكاذيب يمكن تصورها. فهذا الكذاب الأشر الذي ينكر وجود أهل البلاد الأصليين بهذه الوقاحة، لا يرى غضاضة في إطلاق عبارة التنازلات على كل شيء كانت العصابات الصهيونية أو إسرائيل غير قادرة على الحصول عليه في حينه، ومن ذلك قوله بالنص: خلال القرن الحالي قدمت الحركة الصهيونية في أربع حالات على الأقل تنازلات كبيرة.. عام ١٩١٩ تنازل الصهيونيون عن مطالبتهم بمياه نهر الليطاني في جنوب لبنان الذي كان من المقرر أن يكون مصدر المياه الرئيسي للاستيطان اليهودي.. وعام ١٩٢٢ تم اقتطاع حوالي

٨٠% من أراضي الوطن القومي اليهودي في شرق الأردن وأرغم اليهود على قبول هذا الاقتطاع.. وفي إطار اتفاق السلام مع مصر عام ١٩٧٩ تنازلت الصهيونية من أجل السلام عن صحراء سيناء وأخلت آلاف اليهود وهدمت البيوت والمدارس والمزارع التي بنتها في الصحراء طيلة ١٥ سنة، وتنازلت حتى عن كل مطالبها القومية الاستراتيجية والاقتصادية المتمثلة في هذا الجزء من الأرض التي تلقى فيها الشعب اليهودي التوراة ليصبح أمة... وفي عام ١٩٨٩ سلمت إسرائيل طابا للمصريين. "

العقيدة الصهيونية الجديدة

إن رجلا يتجرأ على الحقيقة ويؤلف الأكاذيب على هذا النحو الصارخ بات اليوم نبي الصهيونية الجديدة ومنظرها الكبير. فهذه الأكاذيب التي تتخذ شكل النظرية والتحليل تجري على ألسنة الأغلبية اليمينية الحاكمة وقواعدها من الجمهرات الإسرائيلية التي تجمعت في فلسطين. وليس في ذلك جديد من حيث المبدأ، ولكن الجديد هو أن انتقال النخبة الحاكمة في الولايات المتحدة إلى تبني هذه المقولات حرفيا قد ضم إلى رعايا الصهيونية أوساط الحكم والإدارة في أمريكا.

إن هذا يبين إلى أي حد كان دأب إسرائيل واللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة لغسل دماغ أمريكا في السنوات العشر الماضية، ويكشف من الناحية المقابلة بطبيعة الحال إلى أي حد كان العرب غائبين عن الساحة التي صارت فريسة الأكاذيب المرتبة.

ومن البساطة المخلة أن يحسب أحد أن أحداث الحادي عشر من أيلول سبتمبر كانت السبب وراء تحامل الساسة الأمريكيين على كل ما هو فلسطيني وعربي وإسلامي، بل إلى هذه الحملات الدعائية التشويهية التي تشنها المراجع الصهيونية في أمريكا والعالم يجب إرجاع الأمور، ووضع أحداث نيويورك وواشنطن في مكانها، نقطة انعطاف نحو المجاهرة بالباطل الذي تم حشو الرؤوس به من قبل.

وأعتقد أن جامعة الدول العربية في عهد أمينها العام الأستاذ عمرو موسى هي الجديرة بدور تأسيس هيئة للحقيقة في تلك الديار.

غير أن الأهم هو أن تقف القمة العربية القادمة في شهر آذار مارس ببيروت أمام هذه الحالة التي أوجدها التجدد الصهيوني في إسرائيل والولايات المتحدة وتفكر في آثارها العملية اللاحقة.

بعض العرب يتحدثون كما لو أن ما يجري للفلسطينيين في فلسطين أشبه بحالة خاصة بأحد الأقارب الفقراء في العائلة، الذي قد يجوز له أن يتوقع صدقة من أقاربه الأغنياء ولكنه يكون ثقيلا وسمجا إذا ظ، أن من حقه عليهم أن يعيلوه. لا.. ليس الأمر هكذا على الإطلاق. ولهذا وجب أن يتأملوا هذا النموذج المعبر من الصهيونية الجديدة الذي يرى في مياه الليطاني وفي صحراء سيناء وفي إقليم شرق الأردن بأسره أراضي إسرائيلية ومياها إسرائيلية متنازلا عنها. ومعلوم أن الغزو الإسرائيلي للبنان استولى على مياه الليطاني، أي أن إسرائيل توسعت واستولت على ما تحسبه ملكا لها من بلاد العرب حالما أسعفتها القدرة العسكرية والتحالفات الدولية. وتلك هي العلة الحقيقية فيما تقوم به أو لا تقوم به إسرائيل في لحظة معينة.

القمة.. إذا.. و.. لو

وإذا كانت القمة العربية ستكون فرصة للتأمل وللمراجعة والتفكير في ظل الوضع العربي الراهن، فإن أول ما ينبغي وضعه قيد التفكير والتأمل هو العلاقة مع أمريكا التي استطاعت الصهيونية تجنيدها لمحاربة المنطقة العربية والإسلامية (وفقا لرؤية نتنياهو التي تحدث عنها بالنص نفسه قبل تسع سنوات، نص تجنيد أمريكا لتحارب ضد ما أسماه نتنياهو الإرهاب منذ ذلك الحين). وعلى العرب أن ينظروا في هذا الزمن شرقا نحو الصين واليابان وروسيا، حتى لو كانت هذه الدول تبدو مرتهنة لضعفها قياسا إلى ميزان القوى الدولي الراهن. وإذا أمكن للعرب وللمسلمين أن يساهموا في إيجاد معادلة دولية جديدة عن طريق إرادتهم الجماعية ونفطهم وموقعهم ومواردهم، فإن ذلك يلقى رغبة كبيرة لدى الأطراف الت ذكرناها، وربما كانت الرغبة الأوروبية أشد. وليس عن عبث تكلم الأوروبيون أخيرا بالطريقة التي كانوا يهمسون بها ثم جأروا بالصياح بعد أن تجاوز الانقياد الأمريكي وراء إسرائيل كل حد تجيزه السياسة أو الأخلاق أو العقل السليم.

هذا كله إذا كانت القمة القادمة ستكون مناسبة للتفكير، لا للتهرب من المسؤوليات والتماس الدواعي للحرد والعودة إلى المخدع الدافيء والسفرة الحافلة ووهم العظمة وزور التنمية الاقتصادية، تلك الملهاة التي فاحت رائحتها غير الزكية.